الخلفية اللغوية عند ابن خلدون

في ضوء النظرية التوليدية التحويلية

أ.جميلة بوسعيد

أستاذة مساعدة بقسم اللغة العربية

كلية الآداب و العلوم الانسانية

جامعة جيلالي اليابس

سيدي بلعباس

إن الباحث في المؤلفات القديمة الأدبية منها و اللغوية . يدرك تماما قيمة هدا التراث الضخم الذي خلفه لنا السلف. كما يدرك كذلك الجهود والمعاناة التي بذلها اللغويون والنحاة خاصة في جمع مادتهم ودراستها والتمعن فيها لوضع القواعد النحوية ووصف الظواهر اللغوية على حد لا يقل شأنا عما قدمه الباحثون اللغويون المعاصرون . من هنا يدرك كل عربي غيور على عروبته أن هدا التراث هو جذور الأمة وكيانها ونسيج وجودها كما أنه قدرها وأساس رقيها . وجماع مقومات شخصيتها .

والواجب علينا اتجاهه أن نحييه ونلتزم بتفحصه ودراسته التزاما علميا واعيا. إذ لا يتسنى تحديد مستقبل أية امة دونما وفاء لماضيها. فاحترام الأمم لتراثها هو حفظ لذاتها واستخفافها به هو استخفاف وإطاحة بالنفس. إذ الأمة التي تحقر نفسها و تراثها لا يمكن لها وفي كل حال من الأحوال إلا أن تكون مقلدا كفؤا(1) يعجز عن الإبداع والابتكار فهي تفتقد أهم عنصر لذلك ألا وهو الثقة بالنفس والاعتزاز بالتاريخ والتراث الذي يشكل أصالتها والحافز إلى تقدمها.

وفي كل مجتمع نجد أفرادا يميلون إلى احتقار الذات والاستخفاف بالتراث مثل هؤلاء يجدون في ذلك متعة ونشوة ، فهو في مقابل ذلك يمجد الآخرين ويتغنى بهم .

إن مجالات البحث في تراثنا الحضاري كلها مطلوبة ، فلا ينبغي إهمال جانب من جوانبها بل المطلوب منا تفحصه وإعادة بعثه وإحياءه في سبيل استقصاء جواهره، ولا يتسنى لنا ذلك إلا من خلال بدل الجهد والوقت و وضع الأشياء في مراتبها، فلا نحقر ما يستحق تمجيده ونضخم ما يجب تصغيره بل يجب أن يكون بحثنا ممنهجا ومنظما.

ولعل أهم جزئية لغوية في موروثنا العام يمثلها التراث النحوي هذا إذا أوجزنا الحديث على ما حملته أمهات المصادر اللغوية التي كتب لها أن ترى النور فتنير درب الباحثين عبر العصور،

أما ما بقي مما لم يظهر للوجود من العناوين فلا شك يحمل في ثناياه الكثير والمهمة جسيمة تلك التي تنتظر الانجاز وفق أولويات منظمة ومنهج محكم، لاسيما مجال التحقيق، ذلك أن التحقيق العلمي للتراث النحوي يعد المنطلق الأساسي، ونقطة البدء لأي نهضة لغوية راشدة، مما جعل مسالة التحقيق فوق كل الاعتبارات .

ولعله من الوفاء و نحن نتفحص تراث امتنا اللغوي ،إن نقف عند احد الأوفياء لهدا الموروث الحضاري من الذين محصوا ودققوا فأحسنوا وأتقنوا التبويب و التفصيل في كل ذلك. فنتوقف عند عصر ورغم انه اتهم بالضعف و الرداءة إلا انه أنجب أبرز أئمة العالم الإسلامي إنه الإمام عبد الرحمن بن خلدون صاحب المقدمة والذي حاول في غمرة البحث والغيرة على التراث آن يحدد أولا مقاصد التأليف في سبعة نرصدها فيما يأتي: (2)

1- استنباط العلم بموضوعه و تقويم أبوابه وفصوله كما فعل سيبويه في علم النحو،والشافعي في علم الأصول، وابن جني في علم اللغة، والجرجاني في البلاغة.

2. شرح استغلق من كتب الأولين، مثل شروح كتاب سيبويه، وشروح كتاب الجمل.

3. تصحيح أخطاء من تقدم.

4. إتمام ما نقص من أبواب وفصول(مثلما فعل الزبيدي في كتابه الاستدراك على أبنية سيبويه.

5. ترتيب مسائل في أبوابها، مثلما فعل السيوطي في الأشباه والنظائر .

6. جمع ما تفرق من مسائل في أبوابها، مثل ضيع السيوطي ، ومن جاء بعده من المتأخرين.

7. تلخيص المكرر ، واختصاره وإيجازه (كاختصار الزبيدي لكتاب العين، و تلخيص القزويني في علم البلاغة).

هذا عن مقاصد التأليف التي حددها ابن خلدون في دعوته إلى تفحص التراث ومنهجة تحقيقه

وهو في موقف رد اعتبار للغة العربية، فواجب علينا كذلك أن نرد له الاعتبار فنكشف الغطاء عن إبداعه اللغوي في عصر ألصقت به المهانة والانحطاط. فنجمع ما تفرق من مسائل لغوية ضمن أبوابها فنعمل بمارصده من المقاصد ونزيل العتمة عن أعماله، فنخرجها إلى النور لأنها فعلا تستحق التمجيد.

إذ يلاحظ المطلع على مقدمة ابن خلدون وفي أحد أبوابها الذي جعله خاصا باللسان وعلومه كيف أنه تعرض لأمور تستحق وبكل جدارة مقابلتها بأفكار أصحاب النظريات اللغوية المعاصرة بل أبرزهم ألا وهو النحوي اللغوي "نعوم تشومسكي "والذي تأثر بدوره بآراء الأب الروحي لعلم اللسان الحديث" ذي سوسير "فنظر إلى اللغة على أنها ظاهرة اجتماعية ذات شقين:

لغة و أطلق عليه compétence و يعني به القدرة التي تمكن كل فرد من أفراد المجتمع الناطق باللغة من التعبير عما في نفسه بجمل يفهمها أفراد المجتمع الآخرون ، و

إن لم يكن قد سمعها مركبة من أحد من قبل. فلديه القدرة على توليدها مركبة من المباني الصرفية ذات المعاني المعجمية مع مراعاة القواعد النحوية التي على ضوئها يتم له ربط هذه المباني الصرفية بعضها ببعض في جملة ذات حدود وأنظمة

ومعايير .وعلى ضوئها أيضا يستطيع أن يصرف المعنى الذي في نفسه بتحريك المباني الصرفية في الحد الذي تسمح به قواعد النحو واللغة(3) وبتصرف آخر هي ذلك الجانب الأدبي الذي يضبط وفق قواعد صوتية وصرفية ومعجمية ويهدف إلى تحقيق المعاني الدلالية العميقة ويعبر عنه تشو مسكي بالبنية التحتية Deep structure

وأما الشق الثاني فهو الكلام ويعبر عنه ب per formance .وهو مجموعة الأصوات اللغوية المحفوظة و التي ينطق بها الأفراد كل بطريقته. وليس إلزاما أن تتفق مع جميع قوانين اللغة وقواعدها أكثر من ضرورة موافقتها للمواقف التي يكون فيها المتكلم يعبر عما في نفسه دونما تأمل أو تبصر وذلك ما عبر عنه بالبنية السطحية surface structure .

هذان الثنائيتان يقابلان ثنائية (اللغو و الكلام) عند الوصفيين وذلك من حيث أن اللغة هي ذلك الرصيد الداخلي الذي يمتلكه كل فرد من الجماعة و ليس للفرد عليها أي سلطان ، و لايستطيع خلقها ولا تعديلها عند الجماعة.

أما الكلام فلا يكون موضوعا للعلم لأنه متعدد الأوجه فردي. غير أنه يختلف عن الوصفيين في أنه يرى أن الكفاية هي القدرة اللغوية على الخلق والتوليد المسؤولة عن إيجاد البنية العميقة deepstructure والأداء يقابل الجملة الملفوظة surface structure .(4)

وهو يرى أن البنية السطحية المستمدة قطعا من البنية العميقة التي تمثل الشروط الضرورية لتعلم اللغة، نظرا لوجود كليات لغوية مشتركة لدى الإنسان.

ويجعل ذلك الكفاءة اللغوية والأداء الكلامي شقي نظريته النحوية العالمية (التوليدية التحويلية)

واللذان يعتمدان كأساس في أي تدارس لغوي فيجعل القواعد اللغوية الموجودة في الدماغ الإنساني بالفطرة

والسليقة هي البنية العميقة وتلك الانجازات والانفعالات التي تحدث بين اللغة كنموذج والاستعمال هي الأداء الفعلي وهي مصطلحات تقطعت مع ابن خلدون في المقدمة حينما تكلم عن الملكة الصناعية. وكيف أنها فطرة في الإنسان وهي ماأراد بها النموذج اللساني الذي يحدث بالتكرار فقارب مع ذلك الكفاية اللغوية عند "تشو مسكي" ثم مفهوم التصرف وهو أن ينتقي المتكلم من النموذج ما يناسبه للانجاز خلال المواقف الكلامية وقد لا يرتبط كل الارتباط بهذا النموذج وهو ما تحدد عند تشو ماسكي بالأداء الكلامي.

ونتوصل إلى هذا الحكم إذا ما تفحصنا مفهوم هذين المصطلحين لدى العالمين فالكفاية عند "تشو مسكي" تعني النظام النحوي الموجود عند كل فرد. أي هي تلك القدرة التي تتكون لدى الأفراد المتكلمين والتي تتكون عن طريق الاكتساب داخل المجتمع .فيتمكن الفرد من خلالها من التعبير عن نفسه. و تحقيق عدد من الجمل الجديدة في المواقف المختلفة .تسمى كذلك التمكن أو المعرفة اللغوية أو هي القدرة الفطرية التي تتمثل مقوماتها في معرفة القواعد النحوية والصرفية التي تحكم تناسق الجمل والعبارات في الأنظمة اللغوية.

ويرى تشومسكي أنها تتكون لدى الفرد في سن مبكرة فتجعله قادرا على إنتاج عدد لا متناهي من الجمل التي يتطلبها الموقف الذي يمر به .و هذا دون أن يكون يتبعها أو عرفها من قبل، ويعود ذلك إلى القدرة الفطرية(compétence innée) التي يولد بها الفرد وتمكنه من تعلم أي لغة من اللغات وإتقان نظامها المعقد في زمن محدد(6).

ومضمون القدرة الفطرية هو ربما ما عبر عنه تشو مسكي بالكليات اللغوية (linguistics universals)وهي العناصر المشتركة بين اللغات جميعا، و مهمة اللساني أن يقوم برصدها ووصفها.

وهو ما كان يصبوا إليه فعلا تشو مسكي فيما اسماه (Grammaire universelles)(7) فالكفاية اللغوية إذا هي "ملكة لسانية ذاتية خاصة بمتكلم اللغة الذي ترعرع بصورة طبيعية في البيئة التي تتكلمها".(8)

و ليست هذه الملكة طبيعية أو فطرية وإنما يلقنها المجتمع للفرد وهذا ما ذهب إليه كذلك صاحب المقدمة حيث يقول : يظن كثير من المغفلين.... ممن لم يعرف شأن الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم إعرابا و بلاغة أمر طبيعي. ويقول كذلك: كانت العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وإنما هي ملكة لسانية في نظم الكلم تمكنت ورسخت فظهر في بادئ الأمر أنها جبلة و طبع (9).

فالملكة اللسانية هي السليقة التي يرى تشو مسكي أنه يمتلكها ابن اللغة منذ بدء خلقه، وهو يكتسبها من والديه ومحيطه يكتسب المعرفة باللغة من خلال تعرض تلقائي، ومن دون أن يتدرج عبر تمارين متخصصة، فيستطيع من ثم ومن دون القيام بأي مجهود يذكر استعمال بنى معقدة وقواعد موجهة للتعبير عن أفكاره (10).

وهذا يلتقي مع ابن خلدون في تصوره لها فهو يرى أنها "قدرة اللسان على التحكم في اللغة و التصرف فيها، و هذا ما يتفق مع تفسير المعاجم للملكة، فهي تعني احتواء الشيء مع الاستبداد به ، لكنها هنا ملكة لسانية منسوبة إلى اللسان الذي هو محلها وتصير ملكة إذا احتوى اللغة وتمكن منها واستبد بها" (11).

وإذا كان الأداء هو طريقة تحقيق الكفاية بغية التواصل في ظروف المتكلم الآني للغة ضمن سياقات معينة ، فابن خلدون يعبر عنه بمصطلح " التصرف" و يعتبره تمثيلا للملكة اللسانية مع بعض

الانحراف عن قوانينها وقواعدها دونما خطأ وإنما هو انحراف بغية إبراز ملكية الفرد للغة وحسب إبداعه فيها خلال تصرفه بها في تحقيق مواقفه الكلامية.

والتصرف هو الذي يبرز مدى قدرة المرسل على اكتساب اللغة ومعرفته لها واستعمالها في حياته، و السيطرة على النموذج العام ذلك مما يجعلنا لا نلفي شخصين اثنين يعبران بالكيفية ذاتها رغم توحد الملكة اللسانية والنموذج اللغوي.

وبعد هذه المقابلة العلمية في مفهوم اللغة بين ابن خلدون وتشومسكي، نلحظ كيف أنهما عبرا عنها بالكيفية ذاتها، فاتفقا في تحديد مفهومها وتقاطعت المصطلحات اللغوية عند كل منهما وهذا إن دل إنما يدل على وعي إمامنا الجليل بالظاهرة اللغوية و إلمامه لها، بقدر لا يقل عما توصل إليه علماء العصر الحديث و التي أصبحت لنظرياتهم الشأن البليغ في حقول اللغويات المعاصرة النظرية منها والتطبيقية، فكيف يوصف عصر المماليك وهو الذي أنجب ابن خلدون بالرداءة والضعف بينما ينسب الازدهار والرقي للعصر الحديث.

إن حكما كهذا فيه إجحاف كبير لتراث الأمة العربية وتاريخها وإن إلصاق الانحطاط بعصر المماليك فيه ظلم كبير لعلماء كثر كانوا قناديل تلك الفترة فصنفوا المصنفات الأدبية والتاريخية والاجتماعية ومن واجبنا اليوم نحن الدارسين الباحثين أن نرد الظلم عن تراثنا ونرفع المهانة والهوان ونوقف حقد المستشرق الذي طالما أراد طمس التراث الحضاري للأمة العربية الإسلامية ونثمن بدلك جهود السلف في شتى مجالات الدراسة.

الإحالات

(1) ينظر : د جلال أحمد أمين. التراث و التنمية العربية. بحث في سلسلة التراث و تحديات العصر في الوطن العربي .مركز دراسات الوحدة العربية ط 1 – 1985 ص 767 .

(2) ابن خلدون المقدمة ت . د عبد الواحد وافي ، دار النهضة ، مصر ط 3 – 1981

(3) ينظر: خليل أحمد عمايرة المسافة بين التنظير النحوي و التطبيق اللغوي .ط 1 دار وائل 2004 الأردن ص 293 .

(4) ينظر :د حليمة احمد عمايرة . الاتجاهات النحوية لدى القدماء دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة .دار وائل للنشر عمان الأردن ط 1 ، سنة 2006 ، ص 205- 206 .

(5) ينظر : د زكريا إبراهيم . مشكلة البنية . مكتبة مصر القاهرة 1976 ، ص 33 .

(6) ينظر : أحمد عزوز. المدارس اللسانية ، دار الوليد ، ص 179 .

(7) ينظر: د عبده الراجحي. النحو العربي و الدرس الحديث ، ص 115

(8) د : كريم زكي حسام الدين ، أصول تراثية في علم اللغة ص 70

(9) ينظر : ابن خلدون المقدمة. ت . د عبد الواحد وافي ، دار النهضة ، مصر ط 3 – 1981

(10) ينظر: رشيد العبيدي الألسنة عبد القاهر و المحدثين مجلة المورد مجلد 18 عدد 13 سنة 1989 ، ص 18

(11) ميشال زكريا الألسنة التوليدية التحويلية و قواعد اللغة العربية ، الجملة البسيطة المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ط 1 (1983) بيروت لبنان ص 7